تفسير ابن عربي للقرآن

حقيقته.. وخطره

دكتور
محمد حسين الذهبي

توزيع
دار المسلم

تفسير ابن عربي للقرآن

حقيقته .. وخطره

دكتور
محمد حسين الذهبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسـلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين · وبعد :

فقد هـالنى ما كان من بعض دور النشـر فى مصر وبيروت من الأخذ فى طبع كتاب التفسير المنسـوب لابن عربى ، واصـدار بعض أجزائه وطرحها فى الأسـواق ليشتريها القراء على اختلاف ثقافاتهم وتفاوت ما بينهم من صلة بعلوم الدين ·

وقد قدر لهذا التفسير أن يطبع من زمن بعيد ومضى على طبعته الأخيرة نحو مائة سنة ، ونفدت نسـخه من الأسواق ، ولم يبق منها الا ماندر فى بعض المكتبات العـامة أو الخاصة ، وأصبح الكتاب ـ والحمد لله ـ فى عـداد المنسيات أو كاد ، وما عرفت المطابع ودور النشر عن اخراج

هذا التفسير طوال هذه المدة الا لما فيه من زيغ وفساد ، ولعل بقية من دين كان لها أثر فى ذلك ٠

ولكن بعض دور النشر فى هذه الايام أصبحت لا تهتم الا بما تحصل عليه من أرباح مالية ، فى تنشر من الكتب ما يحقق لها الربح ولو كانت كلها شرا وفسادا ، وما دام الربح يجرى لتفيض به جيوبهم ، فلا عليهم بعد ذلك أن يسرى الزيغ والضلال الى قلوب العامة لتفيض بالشك والحيرة فى دينها حتى تضل وتشقى ! ! ٠٠

هالنى ذلك ، وهال الكثير غيرى ، وقال بعض الغيورين على دينهم وكتاب ربهم : ما بال الازهر يسكت عن مثل هذا الفعل الذى يسىء الى الاسلام ويذهب بقدسية القرآن ! ! ؟

وكنت أعلم أن الأزهـــر ـ ممثلا فى مجمع البحوث الاسلامية ـ لم يسكت عن هذا العمل الذى اجترأت عليه بعض دور النشر فأحيت به بدعة وأيقظت فتنة ، فسارع الى اتخاذ اجراء ـ هو من صميم مهمته ـ لمصادرة ما طبع من هذا التفسير ، وللحيلولة دون اتمام طبعه ونشره ٠

وقال قائل : ولكن بعض اجزاء الكتاب وصلت الى أيدى القراء وبعضهم ـ لا شك ـ مضلل مخدوع ، وبعضهم سوف

لا يعرف سر توقف ناشره عن نشره ، وقد يظنه لأمر مالى ، أو لندرة الورق ، أو لشىء من هذا القبيل ، وحق هؤلاء وأولئك أن يبصروا بحقيقة الامر ، ويعلموا أن الكتاب ضلال يجب أن تقى الناس شره ، وتجنبهم ضره .

ورأى بعض الزملاء الأفاضل أن أتجرد لهذه المهمة وأحمل عبئها ، دفاعا عن كتاب الله وحماية له من عبث العابثين ، والا فعلى من وزر هذه الشنيعة النكراء كعبء لا طاقة لى به .

ورأيتنى ــ ان سكت عن هذا الباطل ــ شيطانا أخرس ، فاستخرت الله تعالى فى كتابة كتيب يكشف للناس حقيقة ابن عربى ، وحقيقة هذا التفسير المنسوب اليه ، وسألته ــ سبحانه ــ التوفيق والسداد ، وأن يجعله عملا خالصا لوجهه، والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل ؟

د . محمد حسين الذهبى

« نشأة التصوف وتطوره »

كلمة (تصوف) قيل : انها مشتقة من الصوف ، وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس فلبسوا الصوف تقشفا وزهدا ٠

وقيل : هى مشتقة من (الصفاء) ، وذلك لصفاء قلب المريد ، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه ٠

وقيل : انه مأخوذ من (الصفة) التى ينسب لها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفة ٠

ويرى بعض العلماء أن الكلمة لقب غير مشتق ، قال القشيرى رحمه الله : (ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب ، ومن قال باشتقاقه من الصفاء أو الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى ٠ قال : وكذلك من الصوف ، لأنهم لم يختصوا به) (١) ٠

وأيا ما كان الأمر فالتصوف هو ـ كما قيل ـ ارسال النفس مع الله على ما يريده ٠

وقيل : (هو مناجاة القلب ، ومحادثة الروح ، وفى هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر ، وصفاء لمن أراد التبرؤ

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢ ط : الشرفية سنة ١٣٢٧ هـ

من الرجؤس والدنس ، وفى تلك المحادثة عروج الى سماء النور والملائكة ، وصعود الى عالم الفيض والالهام ، وما هذا الحديث والنجوى الا ضرب من التأمل والنظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، بيد أن الجسم والنفس متلازمان ، وتوأمان لا ينفصلان ، ولا سبيل الى تهذيب أحدهما بدون الآخر ، فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف اذا : فكر ، وعمل ، ودراسة ، وسلوك) (٢) .

والتصـوف بهذا المعنى موجود منذ الصـدر الأول للاسلام ، فكثير من الصـحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعبها ، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف ، مبالغين فى العبادة . فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار ، ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه ، وتهذيبا لروحه ، غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية ، وانما اشتهر بهذا اللقب فيها بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله، وكان ظهور هذا اللقب فى القرن الثانى الهجرى ، قيل : وأول من اشتهر به ، أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ خمسين ومائة من الهجرة (٣) .

---

(٢) دروس فى تاريخ الفلسفة للدكتور بيومى مدكور ويوسف كرم ص ١٤٠ .

(٣) كشف الظنون حـ ١ ص ١٥٠ .

وفى القـــرن الثانى وما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية ، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها ، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما مر عليها الزمن ، وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذه الأبحاث والنظريات .

غير أن الصوفية تأثروا بالفلاسفة أكثر من تأثرهـم بغيرهم ، وأخذوا من الفكر الفلســفى كثيراً من النظـريات الفلسفية التى يتنافى بعضهـــا مع الدين ، بل وكون بعض المتصوفة لأنفسهم فلسفات خاصة ، وأوغلوا فى ذلك حتى أصبحنا نرى بعضا منهم أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة .

وكان لبعض هؤلاء المتصوفة فلسفات لا تتفق ومبادىء الشريعة ، مما أثار عليهم جمهور أهل الســـنة الى حد أن رموهم بالكفر والزندقة ، ومن ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله ، تظاهروا بالورع والطاعة ، وتحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع ، ومن هؤلاء الذين اندسوا بين جماعة المتصوفة ، جماعة الباطنية الذين تبطنوا الكفر والتحفوا الاسلام ، وتستروا وراء مظـــاهر الزهد الكاذب والورع المصنوع ، كما تستروا وراء التشيع لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا غرض لهم من وراء ذلك كله الا أن يفسدوا على المسلمين عقائدهم ، ويزعزعوا ثقتهم فى دينهم وكتاب ربهم ! ! ..

ولقد نتج عن تأثر المتصوفة بالفلاسفة وبمن اندسوا بينهم من الباطنية أن تنوع التصوف الى نوعين :

تصوف نظرى : وهو الذى يقوم على البحث والدراسة.

وتصوف عملى : وهو الذى يقوم على التقشف والزهد والتفانى فى طاعة الله.

وكل من النوعين كان له أثر فى تفسير القرآن الكريم ، مما جعل التفسير الصوفى يتنوع - هو أيضا - الى نوعين :

تفسير نظرى أو فلسفى ، وتفسير صوفى فيضى أو اشارى :

(التفسير الصوفى النظرى أو الفلسفى)

أما التفسير الصوفى النظرى أو الفلسفى ، فقوامه المباحث النظرية ، والتعاليم الفلسفية ، والصوفى اذا كان من أصحاب هذه النزعة الفلسفية ، نظر الى القرآن من خلال نزعته ، وكله حرص على أن يجد فى القرآن مايشهد لنظرياته وفلسفاته ، وليس من السهل أن يجد فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه ، ولا ما يتمشى بوضوح مع نظرياته فاذا به يحاول أن يطوع القرآن قسرا الى ما يقول به،

وإذا به ينتهى بعد الى تعسف فى فهم النص القرآنى فهما يخرجه عن ظاهره الذى يؤيده الشرع وتشهد له اللغة !! .

(ابن عربى والتفسير النظرى الفلسفى)

ونستطيع أن نعتبر محيى الدين بن عربى شيخ هذه الطريقة فى التفسير ، اذ أنه أظهر من خب فيها ووضع وأكثر أصحابه معالجة لتفسير القرآن على طريقة التصوف النظرى .

وفى الكتب المنسوبة لابن عربى على اختلافها وكثرتها نراه يطبق كثيرا من الآيات القرآنية على مفاهيم فلسفية .

فمثلا : يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية ، فعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن ادريس عليه السلام (ورفعناه مكانا عليا) يقول ما نصه :

(وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس ، وفيه مقام روحانية ادريس وتحته سبعة أفلاك ، وفوقه سبعة أفلاك ، وهو الخامس عشر) .

ثم ذكر الأفلاك التى تحته والتى فوقه ، ثم قال : (وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين ، كما قال تعالى : « وأنتم

الأعلون والله معكم » فى هذا العلو ، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة(٤) .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٩ ، ٢٠) من سـورة الرحمن : (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) يقول مانصه :

(« مرج البحرين » بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات « يلتقيان » فى الوجود الانسانى « بينهما برزخ » هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها « لايبغيان » لايتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعلـه ماديا .. سبحان خالق الخلق القـادر على ما يشاء) .(٥)

كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن الكريم بنظرية وحدة الوجود التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه ، فتراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية حتى انه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى منها !! .

---

(٤) الفصوص لابن عربى ج ١ ص ٢٦ ط : الزمان سنة ١٣٠٤ هـ

(٥) تفسير ابن عربى جـ ٢ ص ٣٨٠ من النسخة الأميرية ١٢٨٣ هـ

فمثلا : عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة النساء « يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ٠٠ » الآية ، يقول ما نصه :

(« اتقوا ربكم » اجعلوا ماظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا مابطن منكم ـ وهو ربكم ـ وقاية لكم ، فان الامر ذم وحمد فكونوا وقايته فى الذم ، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين (٦) ٠

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٩ ، ٣٠) من سورة الفجر : « فادخلى فى عبادى ٠ وادخلى جنتى » يقول ما نصه :

(٠٠٠ وادخلى جنتى التى هى سترى ، وليست جنتى سواك ، فأنت تسترنى بذاتك الانسانية ، فلا أعرف الا بك ، كما أنك لا تكون الا بى ، فان عرفك عرفنى ، وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف ، فاذا دخلت جنته دخلت نفسك فتعرف نفسك معرفة أخرى غير المعرفة التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك اياها ، فتكون صاحب معرفتين : معرفة به من حيث أنت ، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت ، فأنت عبد

---

(٦) النصوص جـ ١ ص ٥٠

رأيت ربا ، وأنت رب لمن فيه أنت عبد ، وأنت رب وأنت عبد لمن له فى الخطاب عهد) (٧) .

(كلمة الحق فى التفسير النظرى الفلسفى)

بعد هذه الأمثلة التى سقناها ، نستطيع أن نقرر فى صراحة واطمئنان : أن التفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن عن هدفه الذى يرمى اليه : يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه وآياته ، ويقصد الصوفى هدفا آخر معينا بأبحاثه ونظرياته ، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد ، فيأبى الصوفى الا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده الى مايقصده هو ويرمى اليه ، وغرضه بهذا كله : أن يروج لتصوفه على حساب القرآن الكريم ، وأن يقيم أبحاثه ونظرياته على أساس من كتاب الله ، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته الصوفية ولم يعمل للقرآن شيئا ، اللهم الا هذا التأويل الذى كله شر على الدين ، والحاد فى آيات الله !! .

---

(٧) الفصوص جـ ١ ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات الى مذهبه القائل بوحدة الوجود ، ووحدة الوجود – عنده وعند من يقول بها – معناها : أنه ليس هناك الا وجود واحد ، كل العالم مظاهر ومجال له ، فالله – سبحـــانه – ، هو الموجود الحق ، وكل ماعداه ظواهر وأوهام ، ولاتوصف بالوجود الا بضرب من التوسع والمجاز . وهذه النظرية سرت الى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة ، وعن طريق الاسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهـم مذهبهم القـــائل بحلول الاله فى أئمتهم ، وصوروه – أعنى الصوفية ، بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة ، وان اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ ... (٨) .

هذا المذهب الذى خول لمثل الحلاج أن يقول : أنا الله ولمثل ابن عربى أن يقول : ان عجل بنى اسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها ، والذى جره فيما بعد الى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى وغير سماوى ، ان الكل يعبدون الاله الواحد المتجلى فى صـورهم وصور جميـع المعبودات .. هذا المذهب الذى يذهب بالدين من أساسه ، هل يكون سائغا ومقبولا أن نجعله أصلا نبنى عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم ؟ .

---

(٨) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول ، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون الى فريقين : فريق يقول بالحلول ، وفريق لا يقول به – انظر الفلسفة الاسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧ .

وهل يليق بهذا الصوفى الذى وضعه مريدوه فى القمة أن يتأثر بمذهبه فى وحدة الوجود فيقول فى شرحه لقولـه تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الاسراء : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » ما نصه :

(.. فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر ونحن نحمله على الحكم كشفا ، وهو الصحيح ، فانهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء الا لتقربهـم الى الله زلفى ، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم وما ثم صورة الا الألوهيـة فنسبوها اليهـم ، ولهذا يقضى الحق حوائجهم اذا توسلوا بها اليه غيرة منه على المقام أن يهتضم وان أخطئوا فى النسبة فما أخطئوا فى المقام ، ولهذا قال : « ان هى الا أسماء سميتموها » أى أنتم قلتم عنها آلهة .. والا فسموهم فلو سموهم لقالوا : هذا حجر ، أو شجر ، أو ما كان فتتميز عندهم بالاسمية ، اذ ما كل حجر عبد ولا اتخذ الها ولا كل شجر ولا كل جسم منير ، ولا كل حيوان ، فلله الحجة البالغة عليهم بقوله : « قل سموهم »)(٩) .

وأصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة : « والهكم اله واحد » قال مانصه :

---

(٩) الفتوحات المكية جـ ٣ ص ١١٧ .

(.. ان الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين والذين عبدوا غير الله قربة الى الله فما عبدوا الا الله ، فلما قالوا : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : ان الهكم والاله الذى يطلب المشـــرك القربة اليه بعبادة هذا الذى أشرك بـــه واحد ، كأنكم ما اختلفتـــم فى أحديته .. فقال : والهكم ، فجمعنا واياهم اله واحد ، فما أشركوا الا بسببه فيما أعطاهم نظرهم ، ومن قصد عن أجل أمر فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال : من صحبك لأمر ، أو أحبك لأمر ولى بانقضائه ، ولهذا ذكر الله : أنهم يتبرءون منهم يوم القيامة وما أخذوا الا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم ، لا أنهم جهلوا قدر الله فى ذلك ، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال : والهكم اله واحد ؟ ونبههم فقال : : « قل سموهم » فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله ، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالا بعيدا أو مبينا ، لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة ، لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم وعلموا انه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئا) .

ويستطرد ابن عربى فى الحديث الى أن يقول : (فاذا علمت هذا وتقرر لديك ، علمت أن الله اله واحد فى كل شرع عينا ، وكثير صورة وكونا ، فان الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه ، وكلها حق ، ومدلولها صدق ، والتجلى فى الصور كثرة أيضا لاختلافها ، والعين واحدة ، فاذا كان الأمر هكذا فما تصنع ؟ أو كيف يصح لى أن أخطىء قائلا ؟ .. الخ(١٠))

---

(١٠) المرجع السابق ج ٤ ص ١٦ ــ ١٧ .

وبعد : فالذى أدين الله عليه أن مثل هذا التفسير الذى أخضعه ابن عربى وغيره الى نظرية وحدة الوجود أو الى المفاهيم الفلسفية الغامضة ، مرفوض بالكلية ، لانه خروج بالنص العربى عن مدلوله ، ولا يعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن احد من صحابته او تابعيهم : أنه نحى مثل هذا المنحى العجيب فى التفسير ، وكتاب الله أعلى وأجل من أن تلصق به هذه الافهام الضالة المضلة · « ومن يضلل الله فما له من هادى ·

« التفسير الصوفى الفيضى او الاشارى »

وأما التفسير الصوفى الفيضى أو الاشـــارى : فهو تاويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها ، بمقتضى اشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة من الآيات ·

الفرق بين التفسير النظرى والتفسير الإشارى :

على ضوء ما تقــدم نستطيع القــول بأن الفرق بين التفسير النظرى والتفسير الاشارى من وجهين :

أولا : أن التفسير الصوفى النظرى ، ينبنى على مقدمات علمية تنقدح فى ذهن الصوفى اولا ، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك ·

أما التفسير الاشارى ، فلا يرتكز على مقدمات علمية ، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل الى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الاشارات القدسية ، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ماتحمله الآيات من المعارف السبحانية ·

ثانيا : أن التفسير الصوفي النظرى ، يرى صاحبه أنه كل ماتحمله الآية من المعانى ، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه ·· هذا بحسب طاقته طبعا ·

أما التفسير الاشارى ، فلا يرى الصوفى أنه كل مايراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شيء : ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق اليه الذهن قبل غيره ·

شرعية التفسير الاشارى :

ولسنا ننكر أن للتفسير الأشارى سندا شرعيا ، ولا ندعى أنه حدث فى الدين إبتدعه المتصوفة فى تفسير القرآن الكريم فقد أشار اليه القرآن الكريم بقوله : (·· فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » النساء ٨٢ ، وقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » محمد ٢٤ وبيان ذلك ــ كما يقرره الشاطبى فى الموافقات حـ ٢ صـ ٣٨٢ ، ٣٨٣ ــ : أن القرآن له ظهر وبطن ، فحيث ينعى القرآن على

الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ويحضهم على التدبر فى آياته ، لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام أو حضهم على فهم ظاهره ، لأن القوم عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك ، وانما أراد بذلك : أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، وحضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده ، وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا اليه بعقولهم .

ويقرر الامام السيوطى وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نبه على التفسير الاشارى بقوله فى الحديث الذى رواه الغربابى عن الحسن مرسلا « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » وقد فسر الحديث بتفسيرات عدة ، ولم أقف له على أصل صحيح يعتد به فلعل المعنى القريب للحديث ما حكاه ابن النقيب : من أن ظهرها : ماظهر من معانيه لأهل العلم بالظاهر وبطنها : ماتضمنته من الأسرار التى يطلع الله عليها أرباب الحقائق .

وأقول : ان بعض الصحابة كانت لهم فى القرآن أفهام فوق ظاهر النص ، هى فى الواقع اشارات قد لا يفهمها الكثير منهم ، فمن ذلك مثلا :

ما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : انه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت

أنه دعانى يومئذ الا ليريهم ، قال : ماتقولون فى قوله تعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح » ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذاك تقول ياابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له : قال اذا جاء نصر الله والفتح ، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها الا ما تقول »(١١) .

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر ، أما ابن عباس وعمر ـ رضى الله عنهم ـ فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر هو المعنى الباطن الذى تدل عليه السورة بطريق الاشارة .

وأيضا ماورد من أنه لما نزل قوله تعالى فى الآية(١٢) من سورة المائدة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ، فرح الصحابة وبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال : مابعد الكمال الا النقص مستشعرا نعيه عليه الصلاة والسلام ، فقد أخرج ابن أبى شيبة : أن

---

(١١) البخارى : باب التفسير جـ ٦ ص ١٧٩ .

عمر رضى الله عنه لما نزلت الآية بكى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قال : أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فأما اذا كمل ، فانه لم يكن شىء قط الا نقص ، فقال عليه الصلاة والسلام : صدقت » (١٢) ٠

فعمر ـ رضى الله عنه ـ أدرك المعنى الاشارى ، وهو نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقره النبى على فهمه هذا . وأما باقى الصحابة فقد فرحوا بنزول الآية ، لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها ٠

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن ٠٠ ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربى ، وبطن يفهمه أصحاب المواهب وأرباب البصائر ، غير أن المعانى الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذى تصل اليه مداركنا القاصرة ، بل هى أمر فوق مانظن وأعظم مما نتصور ، ولقد فهم ابن مسعود رضى الله عنه : أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا فقال : (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور(١٣) القرآن) والى هذا أشـار الله تعالى بقوله : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » سورة الأنعام (٢٨) ٠

هذا ، وينبغى أن يعلم أن المعانى الظاهرة للنص القرآنى لا يشترط لمعرفتها أكثر من الجريان على اللسان العربى ، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى

---

(١٢) تفسير الألوسى ج ٦ ص ٦٠ ٠

(١٣) أى لينقر عنه ويفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته ٠

فليس من تفسير القرآن فى شىء .. لامما يستفاد منه ولامما يستفاد به ، ومن ادعى فيه ذلك فهو مبطل فى دعواه .

أما المعنى الباطن ، فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده ، بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الانسان يصير به نافذ البصيرة فى التفكير ، ومن هذا : أن التفسير الاشارى ليس أمرا خارجا عن مدلول اللغة ، ولهذا اشترط العلماء لصحة هذا اللون من التفسير شرطين أساسيين :

أولهما ، أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، بحيث يجرى على المقاصد العربية .

ثانيهما : أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

أما الشرط الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا ، فانه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس فى ألفاظه ولا فى معانيه مايدل عليه ، وما كان كذلك فلا يصح أن

ينسب الى القرآن أصلا ، ومن قال هذا فهو متقول على الله بالهوى والغرض .

وأما الشرط الثانى : فلأنه اذا لم يكن له شاهد فى محل آخر ، أو كان وله معارض ، صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن ، والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء(١٤)

ثم لابد مع ذلك من اعتقاد أن المعنى الظاهر مراد الله تعالى ، ومن أدعى أن الظاهر غير مراد لله عد كافرا . قال ابن الصلاح فى فتاواه — وقد سئل عن كلام الصوفية فى القرآن — : وجدت عن الامام أبى الحسن الواحدى المفسر — رحمه الله — أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير ، فان كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم أنه اذا قال شيئا من ذلك أنه لم يذكره تفسيرا ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم ، فانه لو كان كذلك

---

(١٤) انظر الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ٣٩٤

كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية » وانما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن ، فان النظير يذكر بالنظير ، ومن ذلك قتال النفس فى الآية المذكورة ـ يريد قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة التوبة : « يأأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » ـ فكأنه قال : (أمرنا بقتل النفس ومن يلينا من الكفار ، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الابهام والالباس)(١٥) ٠

(موقف ابن عربى من التفسير الاشارى)

ماذكرنـاه من كلام الامـام أبى الحسن الواحدى ، وما عقب به عليه العلامة ابن الصلاح فى فتاواه ، ليس الا حسن ظن بالقوم ومنهم ابن عربى ٠ وكنت أود أن أقف من هؤلاء ومن ابن عربى بخاصـة ـ وهو الشـيخ الأكبر والكبريت الأحمر كما يقولون ـ هذا الموقف الذى وقفه ابن الصلاح منهم حملا لحال المسلم على الصلاح ٠ ولكن تبدد

---

(١٥) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩ ٠

املى فى حسن الظن بابن عربى وبمن يحطب فى حبله من المتصـــوفة اثر مقالة قرأتها لابن عربى فى فتوحاته وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية فى كتاب الله ليست الا تفسيرا حقيقيا لمعانى القرآن الكريم ، وشرحا لمراد الله من الفاظه وآياته ، ويقول بكل صراحة : ان تسميتها اشارة ليس الا من قبيل التقية والمداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر .. وفي هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم ـ على حد تعبيره ـ الذين ينكرون عليه وعلى غيره من الصوفية هذا المسلك فى التفسير . واليك ماقاله بالنص ، لتقف على رأيه الصريح الذى لا لبس فيه ولا خفاء :

(مقالة ابن عربى فى التفسير الاشارى)

قال ـ رحمه الله ـ : (اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق ، خلق الانسان أطوارا ، فمنا العالم والجاهل ، ومنا المنصف والمعاند ، ومنا القاهر ومنا المقهور ، ومنا الحاكم ومنا المحكوم ، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه ، ومنا الرئيس ومنا المرءوس ، ومنا الأمير ومنا المأمور ، ومنا الملك ومنا السوقة ، ومنا الحاسد ومنا المحسود ، وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرســـوم على أهـــل الله المختصـين

بخدمتـــه .. العـــارفين به من طـــريق الوهب الالهى الالهى الذى منحهم أســـراره فى خلقـــه ، وفهمهـــم معانى كتابه ، واشارات خطابه تهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام ، لما كان الأمر فى الوجود الواقع على ماسبق به العلم القديم ـ كما ذكرنا ـ عدل أصحابنا الى الاشارات ، فكلامهم ـ رضى الله عنهم ـ فى شرح كتـــابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه اشارات وان كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة ، ورد ذلك كله

الى نفوسهم مع تقديرهم اياه فى العموم وفيما نزل فيه ، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلســـانهم ، فعم به ـ سبحانه ـ عندهم الوجهين كما قال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ، يعنى الآيات المنزلة فى الآفاق وفى أنفسهم ، فكل آية منزلة لها وجهان :

وجه يرونه فى نفوسهم ، ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم ، فيسمون ما يرونه فى نفوسهم اشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم الى ذلك ولا يقولون فى ذلك انه تفسير وقاية

لشرهم وتشنيعهم فى ذلك بالكفر عليه ، وذلك لجعلهم بمواقع خطاب الحق ، واقتدوا فى ذلك بسنن الهدى ، فان الله كان قادرا على تنصيص ما تأوله أهل الله فى كتابه ، ومع ذلك فما فعل ، بل أدرج فى تلك الكلمات الالهية التى نزلت بلسان العامة علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم .

ولو كان علماء الرسوم ينصفون لاعتبروا فى نفوسهم اذا نظروا فى الآية بالعين الظاهرة التى يسلمونها فيما بينهم ، فيرون أنهم يتفاضلون فى ذلك ، ويعلو بعضهم على بعض فى الكلام فى معنى تلك الآية ، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها وكلهم فى مجرى واحد ، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم فى ذلك ، ينكرون على أهل الله اذا جاءوا بشىء مما يغمض عن ادراكهم ، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء ، وأن العلم لا يحصل الا بالتعلم المعتاد فى العرف ، وصدقوا ، فان أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم الا بالتعلم ، وهو الاعلام الرحمانى الربانى ، قال تعالى

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » فانه القائل : « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ». « خلق الانسان . علمه البيان » فهو ـ سبحانه ـ علم الانسان فلا نشك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام ، والله يقول فى حق الرسول : « وعلمك مالم تكن تعلم » وقال فى حق عيسى : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » وقال فى حق خضر صاحب موسى عليهما السلام : « وعلمناه من لدنا علما » فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا : ان العلم لا يكون الا بالتعلم وأخطأوا فى اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبى ولا رسول بقول الله : « يؤتى الحكمة من يشاء » وهى العلم ، وجاء بمن وهى نكرة ، ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا على الآخرة ، وآثروا جانب الخلق على جانب الحق وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ورأوا ـ فى زعمهم ـ أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به على العامة ، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله

عبادا تولى الله تعليمهم فى سرائرهم بما أنزله فى كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذى لايشك مؤمن فى كمال علمه ولا غير مؤمن ، فان الذين قالوا : ان الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفى العلم عنه ، وانما قصدوا بذلك أنه تعالى لا يتجدد له علم بشىء بل علمها مندرجة فى علمه بالكليات ، فأثبتوا له العلم - سبحانه - مع كونهم غير مؤمنين ، وقصدوا تنزيهه - سبحانه - فى ذلك وان أخطأوا فى التعبير عن ذلك ، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بالهامه وافهامه اياهم « فألهمها فجورها وتقواها » فى اثر قوله « ونفس وماسواها » فبين لها الفجور من التقوى الهاما من الله لها لتتجنب الفجور وتعمل بالتقوى .

وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه ، كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به ، فالأنبياء عليهم السلام ماقالت على الله مالم يقل لها ، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها ولا تعلمت فيه ، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالى : « تنزيل من حكيم حميد » وقال فيه انه

« لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » واذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله لا من فكر الانسان ورويته ـ وعلماء الرسوم يعلمون ذلك ـ فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ماأنزل الله فيه من علمـــاء الرسوم ، فيكون شرحه ـ أيضا ـ تنزيلا من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل ، وكذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى هذا الباب : « ماهو الا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده فى هذا القرآن » فجعل ذلك عطاء من الله ، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله ، فأهل الله أولى به من غيرهم فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة فى الحيـــاة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم ، وأعطاهم التحكم فى الخلق بما يفتون به ، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ـ وهم فى انكارهم على أهـل الله يحسبون انهم يحسنون صنعا ـ سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا ، وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق اشارات ، فان علماء الرسوم لا ينكرون الاشارات ،

فاذا كان فى غد يوم القيامة يكون الأمر فى الشكل كما قال القائل :

سوف ترى اذا انجلى الغبار
أفــرس تحتــك أم حمــار

كما يتميز المحق من أهل الله من المدعى فى الأهلية غدا يوم القيامة ٠ قال بعضهم :

اذا اشتبكت دموع فى خدود
تبيـن من بكى ممـن تبـاكى

أين عالم الرسوم من قول على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ حين أخبر عن نفسه : أنه لو تكلم فى الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرأ ؟ هل هذا الا من الفهم الذى أعطاه الله فى القرآن ؟ فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم ، فان الله يقول فيهم « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » فأقامهم مقام الرسول فى التفقه في الدين والانذار ، وهو الذى يدعو

الى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة لا على غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم ، فشتان بين من هو فيما يفتى به وبقوله على بصيرة منه فى دعائه الى الله وهو على بينة من ربه ، وبين من يفتى فى دين الله بغلبة ظنه .

ثم ان من شأن عالم الرسوم فى الذب عن نفسه أن يجهل من يقول : فهمنى ربى ، ويرى أنه أفضل منه وأنه صاحب العلم اذ يقول من هو من أهل الله : ان الله ألقى فى سرى مراده بهذا الحكم فى هذه الآية ، أو يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى واقعتى فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمه عنده . قال ابو يزيد البسطامى - رضى الله عنه - فى هذا المقام يخاطب علماء الرسوم : (أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت .

يقول أمثالنا : حدثنى قلبى عن ربى ، وانتم تقولون حدثنى فلان .. واين هو ؟ قالوا : مات . عن فلان ، واين هو ؟ قالوا : مات . وكان الشيخ ابو مدين - رحمه الله - اذا

قبل له : قال فلان ، عن فلان ، عن فلان ، يقول : مانريد نأكل قديدا هاتوا ائتونى بلحم طرى ــ يرفع همم أصحابه ــ فأولئك أكلوه لحما طريا ، والواهب لم يمت ، وهو أقرب اليكم من حبل الوريد ٠

والفيض الالهى والمبشرات ماسد بابها ، وهى من اجزاء النبوة ، والطريق واضحة ، والباب مفتوح ، والعمل مشروع ، والله يهرول لتلقى من اليه يسعى ، وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، وهو معهم أينما كانوا ، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب ــ مع دعواك العلم بذلك والايمان به ــ لم تترك الأخذ عنه والحديث معه ، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه ، فتكون حديث عهد بربك ٠٠٠) انتهى كلام ابن عربى ، من الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ٠

رأينا في مقالة ابن عربي

ولسنا ننكر على ابن عربي دعواه أن ثم أفهاما يلقيها الله في قلوب أصفيائه وأحبابه ، ويخصهم بها دون غيرهم على تفاوت بينهم في ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت في درجات السلوك ومراتب الوصول . كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام مرادة لله من كلامه ، ولكن بشرط أن تكون داخلة تحت مدلول النص القرآني وأن يكون لها شاهد شرعي يؤيدها كما قلنا . أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآني وليس لها من الشرع ما يؤيدها ، فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله منها لأن القرآن عربي قبل كل شيء ، والله ـ سبحانه ـ يقول في شأنه : «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون(١) » وحاشا لله أن يلغز في آياته ، أو يعمي على عباده طريق النظر في كتابه وهو يقول : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر(٢) » ؟ .

يقولون : انهم يدركون بعض المعاني بعين اليقين ، اذا فلابد لمن يريد أن يحكم على القوم حكما صحيحا أن يجتهد

---

(١) الآية (٣) من سورة فصلت .

(٢) الآية (١٧) من سورة القمر وفي مواضع أخرى من السورة نفسـها .

فى الوصول الى ماوصلوا اليه بالعيان دون أن يطلبه عن عن طريق البيان ، فانه طـــور وراء طور العقل ، والشاعر يقول :

علم التصـــوف علم ليس يعـــرفه
الا أخـــو فطنـــة بالحق معروف

وليس يعرفـــه من ليس يشهـــد
وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف (٣)

ويقول ابن خلدون « وليس البرهان والدليل بنافع فى هذه الطريق ردا وقبولا ، اذ هى من قبيل الوجدانيات(٤) » .

ويقول الآلوسى فى مقدمة تفسيره : « فالانصاف كل الانصاف : التسليم للسادة الصوفية الذين هم مراكز الدائرة المحمدية ماهم عليه ، واتهام ذهنك السقيم فيما لـم يصل — لكثرة العوائق والعلائق — اليه .

واذا لم تر الهـــلال فسلم
لأنـــاس رأوه بالأبصـــار (٥)

---

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢٢ .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٥ .
(٥) تفسير الآلوسى ج ١ ص ٨ .

ويقول الآلوسى أيضا بعد أن نقل عن ابن عربى ماقاله فى تفسير الفاتحة فى فتوحاته : « فاذا وقع الجدار ، وانهدم الصور ، وامتزجت الأنهار ، والتقى البحران ، وعدم البرزخ صار العذاب نعيما ، وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عقاب الانعيم وأمان بمشاهدة العيان ... الخ » .. يقول الآلوسى بعد نقله لهذا الكلام الغريب : « وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق ، ولا ينافى ماوردت به القواطع ... » ثم قال : « واياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه ، وكلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى فسلمه لهم بالمعنى الذى أراده مما لا تعلمه أنت ولا أنا لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقلك المشوب بالأوهام ، فالأمر ـ والله ـ وراء ذلك(٦) ... » .

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالاكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت فى البعد والغرابة ، وتوريط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير مالهم فى مجال التصوف والمتصوفة من شهرة علمية ، ومكانة

(٦) تفسير الآلوسى جـ ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

دينية ، ومهما يكن من شيء فأنا عند رأيي وهو : أن هذه التفاسير الاشارية ، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم ، وليتهم احتفظوا بها لأنفسهم ولم يذيعوها على الناس فيوقعوهم فى حيرة واختلاف : منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه ، واذا عارضه ماينقل من كتب التفسير على خلافه فربما كذبه أو أشكل عليه .. ومنهم من يكذبها ويرى أنها تقول على الله وبهتان!! .. ليتهم فعلوا ذلك ، اذا لأراحونا من هذه الحيرة ، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم ، وقذف البعض لهم بالكفر والالحاد فى آيات الله ! ! ..

حقيقة التفسير المنسوب لابن عربى

هذا التفسير الذى ينسب الى أبى بكر محيى الدين محمد بن على بن احمد بن عبد الله الحاتمى الطائى الأندلسى المعروف بابن عربى ، وبعض الناس يصدق نسبته اليه ويعتقد انه من عمل ابن عربى نفسه وبعض آخر لا يصدق هذه النسبة ويرى أنه من عمل عبد الرازق القاشانى ، وانما

نسب الى ابن عربى ترويجا له ، نظرا لشهرة ابن عربى ، وممن يرى هذا الرأى الاخير الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده عليه رحمة الله ، فقد نقل عنه تلميذه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى مقدمة تفسيره أنه قال بعد ما تكلم عن التفسير الاشارى : « وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ، ومن ذلك التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، وانما هو القاشانى الباطنى الشهير ، وفيه من النزعات ما يتبرأ عنه دين الله وكتابه العزيز . تفسير المنار جـ ١ ص ١٨ .

وما قاله الأستاذ الامام من أن الكتاب من عمل القاشانى لا من عمل ابن عربى صواب أرتضيه وأؤيده بما يلى :

أولا : أن جميع النسخ الخطية لهذا التفسير منسوبة للقاشانى ، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى لأنها الأصل الذى أخذت عنه النسخ المطبوعة .

ثانيا : قال فى كشف الظنون : « تأويلات القرآن المعروف بتأويلات القاشانى ، وهو تفسير بالتأويل على

اصطلاح أهل التصوف الى صورة (ص) للشيخ كمال الدين أبى الغنائم عبد الرازق جمـال الدين الكاشى السمرقندى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ أوله : « الحمد لله الذى جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته ... الخ » . وقد رجعت الى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربى فى النسخ المطبوعة قديما وفى أجزاء النسخة التى طبعت أخيرا ، فوجدت أولها هذه العبارة المذكورة بنصها .

ثالثا : فى تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى : « واضمم اليك جناحك من الرهب .. » الآية يقول : « وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد ، قدس روحه العزيز فى شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه .. الخ(٧) » ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد بن على النطنزى الاصفهانى . المتوفى فى أواخر القرن السـابع الهجرى وكان شيخا لعبد الرزاق القاشانى المتوفى سـنة ٧٣٠هـ كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس فى مناقب

---

(٧) تفسير ابن عربى جـ ٢ ١١٦ ط : الأميرية سنة ١٢٨٣ هـ أما النسخة المطبوعة أخيرا فلم تصل – فى الطبع – الى هذا الحد .

الأولياء ص ٥٣٤ ـ ٥٣٧(٨) . وغير معقـــول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزى المتوفى فى أواخر القـرن السابع الهجرى شيخا لابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .

لهذا كله أقرر أن هذا التفسير ليس لابن عربى ، وانما هو لعبد الرزاق القاشانى الباطنى ، كما يقول الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده عليه رحمة الله ، أو الصـــوفى المتطرف الغامض كما أراه من خلال هذا التفسير !! .

وابن عربى – فى رأيى ورأى الكثير من العلماء : صوفى لا يقل فى تطرفه وغموضه عن القاشـــانى وقد بلغ من أمر تطرفه وغموضـــه حدا جعل بعض العلماء يرمونه بالـــكفر والزندقة ، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود ولمـــا كان يصدر عنه من المقالات الموهمة التى تحمـل فى ظاهرها كل معـانى الـــكفر والزندقة وبين يدى كثير من

---

(٨) هذا الكتاب باللغة التركية ، وقد رجعت اليه ـ من زمن ـ بمعرفة المرحوم الشيخ زاهد الكوثرى وكيل المشيخة العثمانية بدار الخلافة سابقا .

النصوص الشاهدة على ذلك ، نقلتها من مؤلفاته وأهمها (الفتوحات المكية) ومن الناقمين على ابن عربى : الحافظ الذهبى ، وابن تيمية ، ولقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربى ، أنهم حاولوا اغتياله بمصر .

وبعض الناس يحسن الظن بابن عربى ، ومن هؤلاء الامام السيوطى ، ولكنه اذ يزكيه ويعتقد ولايته ، يحرم النظر فى كتبه وذلك حيث يقول فى كتابه (تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى) ما نصه :

(والقول الفصل فى ابن عربى اعتقاد ولايته ، وتحريم النظر فى كتبه ، وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها ، وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر) .

وقال الحافظ الذهبى فى ابن عربى : (وله توسع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر ، وحافظة وتدقيق فى التصوف

وأما ما فيه من التفسير الاشارى ، فكثير منه لا نفهم له معنى ، ولا نجد له من سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه ، ولو أن مؤلف هذا التفسير كان واضحا فى كلامه أو جمع بين التفسير الظاهر والباطن لهان الأمر الى حد ما ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، مما جعل الكتاب مغلقا ، وموهما لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه .

والكتاب فى جملته أن لم يكن تفسيرا باطنيا . فهو أشبه ما يكون به ، من ناحية ما فيه من تفسـيرات تقوم على نظرية وحدة الوجود ، وما فيه من المعانى الاشارية البعيدة ، ثم هو بعد ذلك يورد أحاديث لا أصل لها ، وفيما يلى نماذج من هذا التفسير تكشف عما فيه من زيغ وفساد :

(أ) من الأحاديث التى لا أصل لها :

قال عند شرحه للبسملة ما نصه :

(سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ألف الباء - من باسم الله الرحمن الرحيم - الى أين ذهبت ؟ قال : « سرقها الشيطان » وأمر - يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم - بتطويل باء (باسم الله) تعويضا عن ألفها ، اشارة الى احتجاب ألوهية الآلهية فى صورة الرحمة الانتشارية ،

وتآليفه جمة فى العرفان ، ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس) .

ومهما يكن من شىء فابن عربى والقاشانى كلاهما معقد فى أفكاره ، موهم فى ألفاظه وتعابيره ، مشكل فى أكثر ما يقول ..

وسواء أكان التفسير الذى نحن بصدده لابن عربى أم كان للقاشانى ، فان مؤلفه قد جمع فيه بين التفسير الصوفى النظرى وبين التفسير الاشارى أو الباطنى ، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الاحوال ، وقد التزم هو فى مقدمة تفسيره بالاكتفاء بالتفسير الباطنى دون التعرض للتفسير الظاهر فقال : (فرأيت أن أعلق على بعض ما سنح لى فى الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات ، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود فانه قد عين لها حد محدود) أهـ . جا ص ٤ ، ٥ ، من المطبوع أخيرا .

وما فى الكتاب من التفسير الصوفى النظرى ، فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود ، ذلك المذهب الذى كان له أثر سىء فى تفسير القرآن الكريم .

وظهورها فى الصورة الانسانية ، بحيث لا يعرفها الا أهلها)
أ هـ . جـ ١ ص ٩ . من النسخة الحديثة .

(ب) من التفسير الاشارى :

١ ـ عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة البقرة :
« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام »
الآية . يقول ما نصه :

« ولا تأكلوا أموالكم » معارفكم ومعلوماتكم « بينكم »
بباطل شهوات النفس ولذاتها ، بتحصيل مآربها ، واكتساب
مقاصدها الحسية والجمالية باستعمالها « وتدلوا بها الى
الحكام » وترسلوا الى حكام النفوس الأمارة بالسوء « لتأكلوا
فريقا من أموال الناس » بالقوى الروحانية (بالاثم) أى
بالظلم بصرفكم اياها فى ملاذ القوى النفسانية (وأنتم
تعلمون) أن ذلك اثم ووضع الشىء فى غير موضعه
أ هـ جـ ٢ ص ١١٧ من النسخة الحديثة .

٢ ـ عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة آل عمران :
« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله
قال الحواريون نحن أنصار الله .. » الآية ـ قال ما نصه :
« فلما أحس عيسى » القلب من القوى النفسانية
« الكفر » الاحتجاب والانكار والمخالفة « قال من أنصارى

الى الله » أى اقتضى من القوى الروحانية نصرته عليهم فى التوجه الى الله « قال الحواريون » أى صفوته وخالصته من الروحانيات المذكورة « نحن أنصار الله آمنا بالله » أى بالاستدلال والتنور بنور الروح « واشهد بأنا مسلمون » مذعنون منقادون (أ هـ جـ ٣ ص ١٨٩ من النسخة الحديثة .

(حـ) من التفسير المبنى على وحدة الوجود :

١ ـ عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة آل عمران .

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »

قال ما نصه :

« ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلا » ، أى شيئا غيرك، فان غير الحق هو الباطل ، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك « سبحانك » ننزهك أن يوجد غيرك ، أى يقارن شىء فردانيتك ، أو يثنى وحدانيتك) أ هـ . جـ ١ ص ١٤١ من النسخة الأميرية) .

٢ ـ وعند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الواقعة :

« ونحن خلقناكم فلولا تصدقون » يقول ما نصه :

« نحن خلقناكم باظهاركم بوجودنا وظهورنا فى صوركم »

(أ هـ حـ ٢ ص ٢٩١ من النسخة الأميرية) .

٣ ـ وعند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الحديد : « وهو معكم أينما كنتم » يقول ما نصه :

« وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به ، وظهوره فى مظاهركم » (أ هـ ٠ ج ٢ ص ٢٩٤ من النسخة الأميرية) ٠

٤ ـ وعند تفسيره لقوله تعالى فى سورة المزمل : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » قال ما نصه :

« واذكر اسم ربك » الذى هو أنت ، أى اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسك الله ، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها « رب المشرق والمغرب » أى الذى ظهر عليك نوره فطلع من أفق وجودك بايجادك ، والمغرب الذى اختفى بوجودك وغرب نوره فيك واحتجب بك » (أ هـ ج ٢ ص ٣٥٢ من النسخة الأميرية) ٠

وبعد : فهذه نماذج تكشف عن روح هذا التفسير وهى روح كلها شر ، وكتاب هذا شأنه يفسد على المسلمين عقيدتهم ويوقعهم فى حيرة وشك من كتاب ربهم ، ولهذا أرى من الواجب على المسئولين أن يصادروا ما طبع من هذا التفسير ، ويحال دون طبع باقيه واخراجه للناس مخافة أن يفتنوا فى دينهم ، ويضلوا فى فهم كتاب ربهم ٠

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » ٠

دكتور محمد حسين الذهبى

الفهـــرس

رقم الايداع ٨٢/٣٥٩٦

دار ماجد للطباعة

لدار المسلم

٢١٧ ش بور سعيد – القاهرة

ت : ٩١٤٠٣٦

الثمن ١٥ قرشا